العشرة المقدمون

في تاريخ الفكر الانساني

للكاتب ول دورانت

مؤلف «قصة الفلسفة» و «صروح الفلسفة»

أنحنا في مقتطف مايو الماضي نبأ الجائزة المالية التي جادت بها اريحية صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا احتفاء بذكرى الدكتور يعقوب صروف الناشرة . واقترحنا على الكتّاب موضوعاً هو : «العشرة المقدمون في تاريخ الفكر العربي» . اقترحناه ونحن نعلم ان البحث في سيرة كل من هؤلاء الذين يقع عليهم الاختيار، وتحليل اثره الباقي ، يقتضي مجلداً او اكثر ، ولكننا اقترحناه ونحن نعلم كذلك ان المتغلغل في تاريخ الفكر العربي ، المتسق في فهم تياراته القوية ، يستطيع ان يستشرفها فيلم بمن يحسبهم اعلامها وبما ابدعوا وخلفوا من اثر وكيف وجهوا معاصريهم ومن اتى بعدهم في صفحات ممدودات . ووعدنا ان ننشر في مقتطف يونيو مقالاً للكاتب الفلسفي الاميركي ول دورانت ، نحسبهُ نموذجاً صالحاً لما نقصد،مع انهُ قصر اختياره على الفلاسفة والعلماء ونحن اضفنا اليهم رجال الادب . ولكنهُ حصر ميدان البحث في اصحاب الاثر الباقي منهم ناظراً الى ما استحدثوه من الآراء والمذاهب وما مدى تأثيرها في عصرها والعصور التي تلتها ، وهل كانت مبتكرة او منقولة ، وشاملة او منحصرة في فرع واحد من فروع الفكر ، وعويصة تنفذ بها صاحبها الى جواهر الاشياء او سطحية رقراقة لم تمس الا سطحها

ومقال المستر دورانت ردٌّ على سؤال وجه اليهِ من قبل مجلة اميركية نصهُ : « من هم اعظم عشرة مفكرين في التاريخ » . قال بعد التوطئة :—

« المحرر »

كنفوشيوس

ارى القارىء يهمّ بالاعتراض قائلاً — كيف نختار كنفوشيوس واغفل المسيح أو بوذا ؟ ان السبب في ذلك ان كنفوشيوس كان فيلسوفاً اديباً لا واعظاً يدعو الناس الى عقيدة دينية جديدة . وان دعوتهُ الناس الى الاخذ باسباب الحياة النبيلة كانت مبنية على بواعث زمنية لا على اعتبارات فوق الطبيعة . انهُ اقرب من المسيح الى سقراط وفلسفتهِ . ولد سنة ٥٥٢ قبل المسيح في عصر حلّت فيهِ الفوضى في الصين محلّ مجدها القديم فتمزقت تلك البلاد دويلات دويلات يسودها النزاع والحرب فاخذ على عاتقهِ ان يعيد اليها النظام والوئام . وهاك فقرة من كتاباتهِ توضح لك آراءهُ قال :

« ان الاقدمين الامجاد كانوا اذا ارادوا ان يوضحوا الفضائل السامية وينشروها في الناس ينظمون احوال ممالكهم . وقبل ان ينظموا احوال ممالكهم كانوا ينظمون احوال اسرهم . وقبل ان ينظموا احوال اسرهم كانوا يهذبون اخلاقهم . وقبل ان يهذبوا اخلاقهم كانوا ينقوا نفوسهم وقبل ان ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون ان يكونوا صادقين ومخلصين في افكارهم وقبل كانوا يحاولون ان يكونوا صادقين ومخلصين في افكارهم كانوا يوسعون معارفهم . وتوسيع المعرفة كان مجيء عن طريق البحث والمشاهدة . شاهدوا الاشياء فاكتملت معارفهم وحين اكتملت معارفهم خلصت افكارهم وحين خلصت افكارهم تهذبت اخلاقهم وحين تهذبت اخلاقهم نقيت نفوسهم وانتظمت اسرهم . وحين انتظمت اسرهم انتظمت دولهم ، وحين انتظمت دولهم اصبحت الارض كلها تمرح في السعادة والوئام »

هذه فلسفة ادبية سياسية صحيحة في بضعة اسطر . نعم انها فلسفة محافظة ، تملي كثيراً من شأن السادات الاجتماعية وتستخف بالدمقراطية ولكنها رغماً عما فيها من اقوال شبيهة بمبادىء المسيحية ، نراها اقرب الى فلسفة الرواقيين منها الى المعتقدات المسيحية . ويقال ان تلميذاً وجه سؤالاً الى كنفوشيوس قال فيهِ « انجازي الشر بالخير » فقال « كيف تجازي اللطف اذاً ؟ جازِ الخير بالخير ، وجازِ الشرّ بالعدل » . ولم يكن يعتقد ان الناس متساوون وان الذكاء هبة عامة لجميع الناس بل كان يعتقد ان اكبر حظ يصيبهُ شعب من الشعوب هو اقصاء الجهّال عن المناصب العامة واحلال الحكماء محلهم . فاختارتهُ مدينة كبيرة من مدن الصين تدعى شنغ تو حاكماً عليها « فحدث اصلاح عجيب على اثر توليتهِ ، في عادات الشعب واخلاقهِ . فوضع حدّاً للجرائم ولم يجرؤ الخبث والخداع ان يرفعا رأسيهما واصبحت الامانة وحسن النية من ميزات الرجال ، واللطف واللطف من صفات النساء » . اني لا اكاد اصدق ما يقال انهُ حدث لبدء عن طبائع الناس والراجح انهُ لم يدم زمناً طويلاً . ولكن اتباع كنفوشيوس ادركوا عظمة معلمهم حق في حياتهِ

فدفنوه في احتفال مهيب وبقي جمهور كبير منهم اكواخاً قرب قبره واقاموا فيها يندبون على فقده ثلاث سنوات وبقي احدهم واسمهُ تمي كتع بعد ذلك ثلاث سنوات اخرى

تحيل النظر في الحضارات المتعددة التي نشأت وزالت بعد زمن كنفوشيوس فلا تجد في احداها رجلاً يبهض بفكره فوق بقية الرجال كما يبهض الجبل فوق الآكام التي حولهُ ، انما لا تجد رجلاً نسمع في صوته صوت الشعب الذي ينتمي اليه ، ولا في تعليمه ما اصلح حاضر او احدث فيهم انقلاباً ما . نحن نطوي الهند والعراق والشام وآسيا الصغرى ، فنقع فيها على بعض المشترعين الدينيين ، ولكننا لا نقع على عالم عالمي ولا على فيلسوف عالمي . ثم نستعرض الدول المصرية فينبؤنا التاريخ عن مئات من الفراعنة وآثار خالدة من الفن ، ولكننا لا نجد اسم رجل جمع في عقله حكمة الماضي وطبع شعبهُ بطابعه الفكري الخاص . فتصرف النظر عن كل هؤلاء الشعوب وتتجه الى بلاد اليونان في عصرها الذهبي — عصر بركليس

افلاطون

اتصوّر القارىء يهمُّ بالاعتراض ثانية ولسان حاله يقول كيف تختار افلاطون وتصرف النظر عن معلمه سقراط اب الفلسفة واعظم شهدائها . على ان لا يضطرب القارىء اذا قلت لهُ ان نصف ما يذكر عن سقراط حديث خرافة . فقد اثبت المسيو دوبريل احد كتاب فرنسا في كتاب دعاهُ « الخرافة السقراطية » ان سقراط من طبقة اخلّس وأديبوس وروميولس وغيرهم من الاشخاص الذين تحجب حقيقتهم الخرافات والاساطير . ولا ريب في ان جانباً كبيراً من شهرة سقراط عائد الى ذكاء تلميذه افلاطون وأمانته . ولا نعلم ما في كتابات افلاطون من آراء سقراط حقيقة وما فيها مما ابتكره افلاطون نفسه فليكن اسم افلاطون رمزاً لكليهما

من يدانيهُ اقل رية في اثر افلاطون . انظر الى الاكاديمية التي انشأها ، اولى الجامعات في التاريخ واطولها عمراً . انظر الى الاهتمام العام بفلسفته ، والتجديد الذي تمّ غير مرّة فيها كما ظهر اولاً في اصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة في الاسكندرية ثم في اتباع افلاطون بكمبردج . انظر الى المقام الذي احرزه افلاطون في حضارة القرون الوسطى وما لفكره من الاثر في المباحث اللاهوتية الحديثة . واذكر ان مائة الف تلميذ او اكثر في جميع انحاء العالم المتمدن يكبون اليوم على « جمهوريته » « ومحاوراته » يتلقون منها الحكمة . هذا هو خلود النفس يتلاشى امامهُ فناء الجسد . ان « محاوراته » لمن اثمن الآثار التي ينتجها البشر نفيها اتخذت الفلسفة اولاً شكلاً معيناً ولما افاض عليها افلاطون من عواطف شبابه الزاخرة المتنوعة وصل بها الى قمة عليا من كمال الابداع

اذا شئت ان تصغي الى حديث سام عن الحب والصداقة والبحث عن الجمال فاقرأ ليسي

وكارميدس وفيدرس . واذا شئت ان تعرف ما يناجي قصاً شريفة عما يتعلق بالحياة الاخرى فاقرأ «فيدو» . ان صفحاتها الاخيرة لمن اعلى القمم التي بلغها النثر في كل عصور التاريخ . واذا كانت تلك مشاغل العقل واسرار المعرفة فاقرأ بارمنيدس وثيتيتس . واذا كانت تلك كل المباحث على اختلافها بوجه عام فاقرأ « الجمهورية » ففيها تجد مباحث في ما وراء الطبيعة والآداب وفلسفة النفس واللاهوت والسياسة والفن . فيها تجد المبادئ التي تتشدها طالبات التحرر من النساء ، وفيها تجد القواعد التي يدعو اليها علماء الحياة اليوم لتحديد النسل . فيها تقع على مبادىء الاشتراكية واليوجنية والارستقراطية والدمقراطية والتحليل النفسي والمذهب القائل بان الحياة مظهر من مظاهر التفاعل الكيماوي . فلا عجب ان يقول امرسن في هذا الكتاب « احرقوا كل الكتب في هذا الكتاب غنى عنها »

ارسطوطاليس

لا شك في ان جميع الباحثين مجمعون على اختيار ارسطوطاليس وضعه الى المجلس الذي تؤلفه من اعظم المفكرين . فأبناء القرون الوسطى دعوه « بالفيلسوف » (ودعاه العرب بالمعلم الاول) يريدون بهذه التسمية انه جمع في شخصه وفكره اسمى ما بلغته الفلسفة من الغايات . على اننا لا نرى انفسنا مسوقين الى اختياره بدافع الاعجاب الذي يسوقنا الى اختيار افلاطون . لاننا حين نقبل على كتب ارسطوطاليس نحس بجفاف ما فيها من حقائق مجردة يملؤها عقل خاضع لقوانين البحث المنطقي . ولكن يجب ألا نحكم عليه من مطالعة كتبه لانه قد ثبت ان معظمها كان خلاصات دونها هو او دونها تلاميذه لتذكر الخطب التي كان يلقيها عليهم ، وعليه فليس من الانصاف ان نقابل هذه الكتب بمحاورات افلاطون التي كانت ولا تزال اقوى ما يدفع الناس الى الاعجاب به اعجاباً يقرب من الحب

فاذا صرفنا النظر عما تقدم وجدنا ان عقل ارسطوطاليس كان من اعجب العقول في تاريخ الفكر مهما سواء أنظرنا اليه من حيث سعة المباحث التي اشتغل بها ام من حيث تعمقه في كل منها . انه يطوّق الكرة بفكره فيبحث في كل موضوع من موضوعات العلم والفلسفة فيزيده وضوحاً ويرى لكل مشكلة من مشكلاتها حلاً وتعليلاً معقولاً فكانه بث العيون والارصاد تجمع له حقائق الحقائق والمعارف ثم تناولها بعقله فوحد بينها . انك تجد في كتبه التعاريف والالفاظ الفلسفية التي لا تزال تستعمل الى الآن . كذلك تقع فيها على حكمة تكاد تكون كاملة تشمل الحياة بأسرها . لقد كان ينشئ علوماً جديدة بسهولة تامة ففي مؤلفاته تقع على اول ذكر لعلم الحياة وعلم الاجنة والمنطق . لم يكن اول من فكر في هذه الموضوعات ولكنه كان اول من فكر فيها مقيداً تفكيره بالملاحظة والبحث والاستقراء والامتحان واستنتاج النتائج من مقدماتها .

فاذا صرفنا النظر عن علم الهيئة وعلوم الطب فتاريخ العلم يبدأ من مباحث هذا الفيلسوف العظيم. ماس فيلسوف اوعالم آخر كان لهُ من الاثر الواسع النطاق كاثر ارسطوطاليس الا كنفوشيوس. ان جميع دارسي التاريخ يعرفون ان علماء مدرسة الاسكندرية والباحثين في رومية في عهد الامبراطورية اتخذوا مؤلفات ارسطوطاليس قاعدة لمباحثهم العلمية وان فلسفتهُ التي نقلها العرب الى أوربا اصبحت القاعدة التي بنيت عليها الفلسفة المدرسية في عصور النهضة وان دانتي وضعهُ في المقام الاول بين رجال المعرفة فدعاه « معلم المعلمين » وان المعلمين البزنطيين بعد ما افتتح الاتراك القسطنطينية عنوة هجروا شرق اوربا الى اواسطها وغربها فنقلوا معهم بزور فلسفته فكانت من اكبر العوامل في النهضة الاوربية بعد القرون المظلمة. وبقي ارسطوطاليس مسيطراً على سير الفكر البشري نحو الف سنة لم تنقض الا امام البحث العلمي الذي قال به روجر باكون والفلسفة التي ابتكرها فرنسس باكون

***

تمر بنا اليونان ونستبق رومية فنسأل من هم اعظم المفكرين فيها. ان لفريطيوس اولم واعلاهم كعباً. على ان فلسفتهُ لم تكن من مبتكراته، بل استمدها بكل صراحة الى ابيقوروس، ولم يكن اثره الا اثراً متفرقاً. وعليه فلا نستطيع ان نختاره ليدخل بحثنا. واما سنكا وابكتيتوس واوريليوس فلم يكونوا سوى اصداء تردد اقوال بعض فلاسفة اليونان كزينون وغيره يطبقونها على احوال رومية المتضعضعة. كانت الحضارة الرومانية في اواخر ايامها حين كتب هؤلاء الكتاب قد هانت بعد العز، ودالت بعد القوة وحل الارقاء محل الاحرار وخضعت المدن العامرة القديمة لفرائض الجزية والطاعة. وانقسمت الطبقات السائدة طرائق طرائق، واذا الحضارة القديمة قد دكت الى الحضيض وبانت الاطلال تعمى من بناها

ثم ما لبثت ان قامت الكنيسة المسيحية فوق الاطلال تجمع الاحزاب وتزيل الضغائن بفعل الكتب المقدسة. زال الامبراطرة وبقي البابوات. ورجعت كتائب الجيوش من ساحات الحروب والطلقت مكانها فرق الرهبان، جيوش المعتقد الجديد تغشى نظاماً جديداً يستطيع الفكر ان يسمو فيه ويعيش. ما الحول ذلك العهد الذي اخذ العقل الاوربي فيه يتلمس طريقه الى النور

والست المتاجر، واصبحت القرى الصغيرة مدناً كبيرة، والمدارس جامعات فتمكن بعض الافراد ان يتحرروا من مطالب الحياة الشديدة لينعموا في ظلال التفكير والدرس والبحث فهز ابلار لعف قارة اوربا بلاغته وادمج بوناقتوري وأتسلم خلاصة الافكار الثائرة في فلسفة لاهوتية مجيدة ولما انقضى زمن الاستعداد انجبت اوربا ارسطوطاليساً آخر في شخص هو :

توما الاكويني

رجل كان يهتم بشتى مظاهر الكون والحياة ووصل باسلاك دقيقة من الفكر بين ضفتي الهوة الفاغرة بين العلم والاعتقاد . جمع معارف عصره ونشرها ووحدها ثم سددها الى مسائل الحياة والموت وعليه فيجب ان نختاره وان كان بعضنا لا يرتاح الى ذلك

ان قلبي ليخفق اذ أُجبر على اختيار توماس الاكويني ليشغل بين أعظم المفكرين محلاً كنت اود ان اشاهد فيه سبينوزا او ليوناردو دافنشي ، ولكن جرياً على الخطة التي رسمتها وهي التجرُّد عن الهوى في اختيار من نختار ، يجب ان نخضع اهواءنا لعقولنا . ان تفوق توما الاكويني في قرن حافل بالعظائم واثرهُ البعيد المدى في ملايين من الناس ، وآراءهُ التي لا تزال في عرف كثيرين اقوى دعامة من مبادىء العلوم الحديثة ، وفلسفتهُ التي لا تزال الركن الذي يقوم عليه اعظم مذهب مسيحي ، كل ذلك يحكم علينا باختياره

وفي القرن الخامس عشر ارتفع صوت من بولونيا يقول ان الارض وهي موطىء قدمي الله في عرف الاقدمين ليست سوى سيار صغير يدور حول شمس صغيرة . قول لا يثير فينا الآن دهشة ولا استغراباً لاننا تعلمناه في مدارسنا ونقرأهُ في الكتب والصحف ، ولكنهُ كان كفراً والحاداً في عصر كانت فلسفة ابنائه تقوم على قرب الناس من السماء لانهُ جاء ضربة قوية حطمت السلم الذي يصل بين البشر والملائكة

كوبرنيكس

ان كتاب « كوبرنيكس » الذي عنوانهُ « دوران الاجرام السموية » احدث ثورة فكرية بعيدة المدى . لما جلس راقب الكواكب الساعة الاخاذة لم يكن يدور في خلده ما قد يكون لقوله من الاثر في المعتقدات ، لانهُ كان قد اخذ بالبحث عن الحقيقة والحقيقة في عرفه تحرر الناس ، فقلب بسحر معارفه الرياضية رأيهم في الكون فبعد ما كانوا يعتقدون ان الكون وما فيه يدور حول الارض والانسان اضحوا يرون ان الكون نجوم وعوالم متناثرة في هذا الفضاء غير المحدود

لا اعلم مبلغ تفهمي كوبرنيكس من العلوم الرياضية والفلكية على اننا نقيس مكانتهُ باثره الذي لا يفنى . فيه بدأ العقل يثور على الخرافات والاقوال التي تقبل بالتسليم ومن ثم مضى في ثورته عصراً بعد عصر ، يكشف حقائق الطبيعة ويسيطر على عناصرها حتى بلغ ما بلغهُ الآن

فالثورة التي اثارها كوبرنيكس اثبتت ان الفكر البشري بلغ اشده حينئذٍ ومنها سار في معارج التضوج والاكتمال

بلغ الفكر البشري اشدهُ في عصر كوبرنيكس ومن ثم اخذ يتقدم بخطوات ثابتة في كشف اسرار الطبيعة والسيطرة على عناصرها . فكان العصر الذي تلا عهد كوبرنيكس حافلاً برواد الفكر الشجعان الذين لم يثنهم خوف او انتقاد عن الخوض في مختلف المباحث

من نختار ممثلاً لهذا العصر — عصر الاختبار ؟ انختار ليوناردو دافنشي المصوّر الموسيقي انحات البناء المستبط المهندس الفيلسوف العالم بالتشريح والفسيولوجيا والطبيعيات والكيميا والجيولوجيا والزوولوجيا والنبات والجغرافيا والرياضيات؟ كلا ان التعريف الذي اطلقناهُ على رجال الفكر لا ينطبقُ لانهُ كان رجل فنٍّ اكثر منهُ مفكراً او عالماً واثرهُ الباقي في الناس هو اثرهُ الفنيّ فاذا ذكرناهُ الآن نذكر صورتيهِ « الجيوكوندا » « والعشاء الاخير » لا رأيهُ في الآثار المتحجرة او دورة الدم

فرنسيس باكون

أنختار جيورداتو برونو صاحب النفس الباحثة وراء الفيوم عن الوحدة الالهية غير راضية عن المذاهب والطوائف واختلاف المعتقدات ؟ كلاَّ لاننا نجد في هذا العصر رجلاً اوسع فكراً وأبعد اثراً من برونو الذي أحرق في سبيل الفلسفة . نجد رجلاً دعا جميع الباحثين عن الحقيقة الى الترابط والتعاون في خدمة العلم واثبت ان الغاية من الفكر ليست المناقشة المدرسية والتكهن بالغيب بل الغاية منهُ السيطرة على الطبيعة سيطرة تمكن الانسان من القبض على ناصية الاحوال الطبيعية التي يعيش فيها . أنهُ رجل بلغ من سعة نظره ان رسم خريطة لمجاهل العلم ودل الباحثين الى اصول العلوم التي انشأوها بعدُ ودربهم على كشف حقائقها وترتيب اصولها . هو الرجل الذي نفخ روح الحياة في الجمعية الملكية الانكليزية وجامعة الانسكلوبيديين الفرنسيين وعلّم الناس ان المعرفة للقوة والسيطرة . لا للتأمل والتخيل . هو الرجل الذي قضى على منطق ارسطو طاليس واقام الملاحظة والامتحان اساساً للفكر واتصف بكل الصفات التي يمتاز بها الفكر الحديث — هذا هو فرنسيس باكون

وحديث التقدم الفكري منذ ايام باكون الى الآن هو حديث الفلسفة الباكونية والاساليب الباكونية وانتصارها على الفلسفة والاساليب القديمة

***

ما اكثر الرواد على هذه الطريق . ففي يدي ديكارت يتصارع النظام القديم مع النظام الجديد من غير ان يتم الفوز الاكمل للجديد . وفي عقل ليبنز نشاهد ما للتقاليد القديمة المرعية الجانب من قوة ونفوذ لانها تحول الرياضي المتنازل لاهوتي متردد . وفي صوت عمانوئيل كانت

نسمع صوت المعتقدات القديمة يرتفع وسط اهازيج الريبة والشك التي اثارتها المباحث الجديدة والآراء الجديدة

على ان سبينوزا وفق توفيقاً غريباً في الجمع بين هذين المذهبين المذهب العلمي والمذهب اللاهوتي في النظر الى الطبيعة والكون . ومن هو سبينوزا ؟ رجل جعل التأمل في الله والطبيعة والحياة عمله ، فسار به عقله المتفوق اشواطاً بعيدة في كشف الكثير من اسرارها . انظره يصنع بلوراته ، او يدوّن آراءه في ما وراء الطبيعة او يدرس الهندسة والميكانيكيات او يتشهد للفلسفة يرى في كل عمل من اعماله عظمة وجلالاً جعلت كل مفكر بعده يتأثر بفكره السامي وشخصيته القوية . ولكننا لا نستطيع ان نتخيله واحداً من العشرة الذي نحاول اختيارهم . لان اثره كان محدوداً وحصوراً في افراد قلائل ولو كانوا من قادة الفكر في العصور التي تلت عهده

نيوتن

ولكن من يشك في مقام نيوتن ؟ ان تلاميذ المدارس يعرفون كثيراً من القصص التي تروى عنه وتدل على انصرافه عن مسافسة الحياة الى التأمل في اسرار الكون . ان قصتي التفاحة الساقطة والكلب الذي احرق له كتاباً ثميناً اشهر من ان تذكر ولكن هل يعلم كثيرون ان كتابه « المبادىء » كان فاتحة عصر جديد تمت فيه سيطرة العلم على سير الفكر الحديث . وان نواميس الحركة التي كشفها اصبحت اساساً لعلم الميكانيكيات الحديث الذي بُني عليه كل تقدم عملي في عمراننا الحاضر وان اكتشافه لناموس الجاذبية حول الكون الى نظام دقيق تعرف ابعاد اجرامه واجرامها وحركاتها . قال فولتير « كنا نتحدث فسأل سائل اي الرجال التالية اسماؤهم يفوق الباقين عظمة — الاسكندر او قيصر او تيمورلنك — فاجاب احد الحضور لاشك ان نيوتن اعظم الجميع . فكان كلامه فصل الخطاب لان نيوتن يسيطر علينا بقوة العقل لا بالسيف البدني وعليه فنحن نحترمه » . فيظهر مما تقدم ان معاصري نيوتن ادركوا مقامه الفريد بين رجال الفكر ، وقد جاء الاحتفال بانقضاء مائتي عام على وفاته اقوى دليل على ذلك

فولتير

والى فولتير يعود الفخر والفضل في نقل مبادىء نيوتن الميكانيكية وفلسفة هُبس الى فرنسا فكان عمله مبدأ عصر النهضة والنور فيها وكان هو حامل مصباحه ورافع لوائه . قد يدهش بعض القراء ويحنق بعضهم حينما يرون فولتير قد زُج بين اعظم المفكرين في التاريخ ويعترضون بانه لم يكن مبتكراً في آرائه وانه كان فوق ذلك هداماً اكثر منه بناء ولكن من منا مبتكر لدى التحقيق وأي رأي تصوره الآن لم يذكر منذ القدم في صور مختلفة ؟ ان ابتكار الخطإ اسهل على الناس من

ابتكار الصواب. ألم يتناول سبينوزا — وهو من اكثر المفكرين تقصياً وتعمقاً — مبادىء آرائه وفلسفته من برونو وابن ميمون وديكارت ؟ ألم يتخذ احد العلماء موضوعاً لبحثه حين نال لقب الدكتوراه « ان كل ما كتبهُ ارسطوطاليس باطل لا يستثنى منهُ سوى ما نقله عن افلاطون» ألم ينقل افلاطون قديماً وشكسبير حديثاً كثيراً من مرويات الناس فطولاها بسحر خيالها وبلاغتها الى آيات خالدة من الفن والجمال ؟ فاذا سلمنا بأن فولتير وباكون اثارا مصباحيهما من مصابيح الغير افلا يكفيهما فخراً وعظمة انهما اضاءا بهما العالم . اخذ فولتير من غيره آراء كانت مطمورة مطمورة في زوايا النسيان لصعوبة تناولها ، فبسطها وألبسها من سحر بلاغته ثوباً خلاباً فاقبل عليها الناس اي اقبال

وهل كان فولتير هداماً كما يقال ؟ ارفض الاعتراف بعظمته وقوة فكره لان آراءه تختلف عن آرائنا ؟ الم تختلف عن سبينوزا لان آره كان محصوراً في نفر قليل من المفكرين مع ان بعضنا يقدس فلسفتهُ حتى يكاد يقسم بها ؟ وعليهِ فيجب ألا نسأل هل تتفق آراء فولتير مع آرائنا بل هل قبلها الناس وهل كان لها اثر فعال في تلوين آرائهم وتوجيهها في عصره والعصور التالية ؟

لا ريب في ذلك اذ يقال ان الملك لويس السادس عشر التقت في سجنهِ فرأى مؤلفات فولتير وروسو فقال « هذان الرجلان نوضا دماغ فرنسا » . ولو وضع كلمة « الاستبداد » بدل فرنسا لكان اصاب كبد الحقيقة

على ان الملك لويس اسبغ على الفلسفة شرفاً لا تستحقهُ كلهُ . اذ لا شك ان الحالة الاقتصادية في فرنسا في العصر الذي سبق الثورة مهدت السبيل الى الثورة الفكرية التي كان فولتير زعيمها ورائع لوائها . لكن الالم في عضو من أعضاء الجسم لا يدفع الانسان الى معالجتهِ ان لم يشعر بهِ اولاً بما تنقلهُ الاعصاب من الاحساس بالالم الى الدماغ . وعلى ذلك تس حالة فرنسا . ان جهل العامة بفساد الحكم في ايام البوربون جعل استمرار الحالة مما لا مندوحة عنهُ الى ان يفضي على البلاد بشرق شملها وهبوطها الى هوة سحيقة من الانحطاط والخذلان . لكن أقلام عشرات من الكتاب انطلقت من عقالها تصور للشعب فساد الحال فكان سريرها أوقع من صليل السيوف لانها دلت الشعب على مكامن الداء فانتاك فهبَّ يبحث عن الدواء . وفي هذا العمل العظيم كان فولتير القائد الاعلى انضمَّ تحت لوائهِ عشرات من الكتاب كلهم يعترف بقيادتهِ وينقاد لهُ باشارتهِ حتى فردريك الكبير حياهُ بقولهِ « انهُ أكبر نابغة أنجبتهُ العصور»

وكما ان قادة الفكر في ذلك العصر كانوا ينحنون امام فولتير احتراماً كذلك نراهم في العصور التالية يعتبرونهُ امام الحرية الفكرية ويلقبونهُ بصاحب الجلالة . فنيتشه الفيلسوف الالماني استقى كثيراً من تعمقهِ وقدَّم اليهِ احد مؤلفاتهِ وأناتول فرانس تتلمذ لهُ ودرس عليهِ في مؤلفاتهِ السمة

والتمين وكيتشفيها أسلوبهُ وفكرهُ . وبراندس كبير الجنود في كثير من معارك الحرية الفكرية وقف ايامهُ الاخيرة على وضع سيرة لهُ كاد يرتمهُ فيها الى مصاف الآلهة . فاذا اغفلنا اكرام فولتير كنا غير جديرين بالحرية التي رفع منارها

على ان هناك وجهاً آخر للنزاع بين الايمان والشك ، بين الفلسفة القديمة والاساليب العلمية الحديثة . ذلك ان كثيراً من المستقدات التي انهارت امام النزعة العلمية الحديثة كان لها كثير مما يشفع بها وفولتير نفسه بقي موحداً مؤمناً حتى انهُ اقام في بلدته كنيسة للصلاة . على ان اتباعه تصدوا الحد الذي بلغهُ زعيمهم ولما مات كانت الفلسفة المادية قد طغت بتيارها وتغلبت على كل فلسفة أخرى تنازعها البقاء حينئذٍ

***

في أواخر القرن السابع عشر ظهر في انكلترا الفيلسوف الانكليزي جون لوك فكان الرأي الاساسي في فلسفته ان الاختبار مصدر المعرفة وان الحواس سبيل الاختبار وان العقل لا يحتوي على أمر لم يصلهُ عن طريق الحواس . فكان قولهُ هذا سبيلاً الى الاستنتاج بأن الاجسام المادية تؤثر في العقل عن طريق الحواس دون غيرها . واننا لا نستطيع ان نعرف شيئاً الا اذا كان جسماً ماديًّا وعليهِ فالفلسفة المادية هي لباب الحق

فرد عليهِ المطران باركلي بقولهِ ان قول لوك يثبت من قبلهِ ان لا وجود مستقل للمادة وانما هي توجد لاننا نشعر بها بحواسنا فاذا انعدمت الحواس انعدمت المادة ففضى برده هذا على المادة والفلسفة المادية . ولم يلبث ان جرى لها دافيد هيوم فكتب رسالته التي عنوانها « الطبيعة البشرية » جارى فيها باركلي في نفي وجود المادة المستقل وتعداهُ فأثبت بالطريقة نفسها ان العقل ليس لهُ وجود مستقل

٥

تصور الحالة الفكرية في ذلك العصر وما أصيبت به من الاضطراب . استل باركلي سيفاً طعن بهِ المادية فجاء هيوم واستلَّ السيف نفسهُ وطعن بهِ العقل غير المادي والروح الخالدة وفي المعركتين فقد العلم كثيراً من مقامهِ وهيبتهِ . في ذلك الحين تناهت الى عمانوئيل الالماني ترجمة مؤلفات هيوم فقرأها ولما انتهى ناجى نفسهُ قائلاً « أتتخلى عن العلم والايمان لهذا التقادة الهدّام ؟ ماذا يجب ان نفعل لانقاذهما ؟ »

وماذا فعل ؟ وضع كتابهُ « نقد العقل المحض » ووضع فلسفتهُ الكمالية التي رفع فيها

شأن التأمل كمصدر من مصادر المعرفة لانهُ تقضي بان الاختبار لا يمكن ان يكون وحدهُ مصدر المعرفة فأمضى الناس الى صوتهِ فرحين لانهم سمعوا فيهِ صوت التقاليد والمعتقدات القديمة التي كانت مرعية الجانب لدى آبائهم واجدادهم ، ولانهم رأوا فيهِ منصرفاً عن العلم البقيني المادي الذي اخذ ينتشر حينئذٍ

***

ومن يشك اقل الشك في اثر كانت ؟ انهُ انقذ العقل والنفس من قبضة المادة ، ودفع بالمانيا كلها الى الاهتمام بالمباحث التي ما وراء الطبيعة فأقبل عليهِ شلر وغوته يتلقيان الحكمة والحق ونقل عنهُ بتهوفن قولهُ « ان عجيبتي الحياة هما القبة الزرقاء رسمها الكواكب والناموس الادبي في نفس الانسان » وتابعهُ فيخت وشلنغ وهيجل وشوبنهور فوضع كل منهم نظاماً فلسفيًّا جديداً يقوم على نزعتهِ الكمالية . وكأن كتابهُ « نقد العقل المحض » كان تمهيداً لآراء شوبنهور ونيتشه وبرغسن ووليم جيمس . وحتى الآن لا يزال نظامهُ الفلسفي قائماً لان العلم الحديث في اشخاص بيرسون وماخ وبوانكاري اثبت ان « الحقيقة » و « المادة » و « الطبيعة » و « نواميسها » كلها مما يستنبطهُ العقل ولا وجود لها الاَّ بوجوده فكأن اكليل النصر عقد لكانت وفلسفتهِ ففازا على المادية والالحاد

ثم جاء داروين فثارت الحرب ثانية

داروين

اننا لا نعلم ما قد يكون لاثر داروين التهائي في تاريخ البشر ولكن لا ريب في انهُ فاتحة عصر جديد في التقدم الفكري . فاذا ثبت انهُ على خطإ فيما ذهب اليهِ انقذه الناس كما كادوا ينقذون ديموقريطس وانكساغورس . واذا ثبت انهُ على صواب تقدمت الاحيال المقبلة اليهِ بالتجلة والاعظام وجعلوا سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي نشر فيها كتابهُ « اصل الانواع » حدًّا يبدأ عندهُ الفكر الحديث

وماذا فعل داروين ؟ رسم صورة للارض والحياة تختلف عن كل صورة قبلها ، واشار فيها اشارة دقيقة الى كل ما رآه من غير ان يتهجم على معتقد ما . واذا الطبيعة في هذه الصورة معركة حامية الوطيس ، فيها الولادة عَرَض والموت حقيقة ازلية . والحياة سداها ولحمتها الانتخاب الطبيعي القائم على تنازع البقاء وبقاء الاصلح . وسطح الارض مرتع للاحياء من منظورة وغير منظورة يأكل قويها ضعيفها ويتتكُ داهيها بساذجها وصار للافضال الطبيعية

على اختلافها من زمهرير وزلزال وأعصار وطوفان ووباء وحريق وحرب شأن كبير في هذا الانتخاب ، تبيد بها أجيال وتبقى اجيال اخرى تعيش وتتكاثر الى ان يُقضى عليها او يحل محلها ما هو اصلح منها للبقاء . هذا هو النشوء وهذه هي الطبيعة وهذه هي الحقيقة وهذه هي الارض — بحسب صورة داروين

جاء كوبرنيكس فأثبت ان الارض ذرة سابحة في الفضاء فقضى على المعتقد القديم القائل بانها مركز الكون وموطنٌ قدسي الله . وجاء داروين فأثبت ان الانسان حيوان يتنازع مع سائر الحيوانات السيطرة على الكرة الارضية فقضى ايضاً على المعتقد القديم القائل ان الانسان خلق خلقاً مُستقلاً وانهُ سيد كل المخلوقات

تصور تأثير هذه الفلسفة الجديدة في العقول التي نشأت على الفلسفة الكنائية والمعتقدات الدينية . افتعجب اذاً حين ترى رجال المعتقد القديم يثيرون حرباً ضروساً على الرأي الجديد حتى يبلغ العداء بين العلم والدين مبلغاً من الحدة والشدة لم يبلغهُ بعد غليليو وبرونو ؟ ولكن ألا يقف المتنصرون في هذا المعترك على جثث ضحاياهم يأسفون لتصرم الحين تواقين الى النظام القديم والمعتقد القديم الذي قوضوا اركانهُ !؟

***

اما لك اذن الرجال العشرة الذين اخترناهم

كنفوشيوس — افلاطون — ارسطوطاليس — توما اكيناس — كوبرنيكس — باكون — ڤولتير — كانت — داروين . والى جانبهم افراد لم يسعنا ان ندخلهم معنا مع ان لهم مقاماً لا يقل عن مقام هؤلاء — ديمقريطس — ابيقوروس — مرقس اوريليوس — ابيلارد — غليليو — سبينوزا — ليبنز — شوبنهور — سبنسر — ونيتشه

***

وقد حكم علينا ان لا نذكر احداً من المخترعين لان كثيراً من العقول اشتركت في اخراج مستنبط وأحد من حيز الخيال الى حيز العمل والاتقان . واذا ذكرنا الحركات الاجتماعية الكبيرة في التاريخ وجدنا اننا ضربنا صفحاً عن كثيرين من زعماء الفكر البشري . اين الحركة الفسائية وزعيمتها من ماري ولستنوكرافت الى سوزان انتوني . واين الحركة الاشتراكية من ديوجينس وزينون الى لاسال وماركس ؟ وهذا النقص لا سبيل الى تلافيهِ اذ اية قائمة تستطيع ان تستنفد كنوز الفكر البشري على اختلافها ؟ آه